

# الغائب الأكبر.. بحث عن مثقف علم الاجتماع

## علم الاجتماع النقدي ضرورة إنسانية ضد التشكيك في قصص التحرر الكبرى



المجتمع ليس كما يصوره علم الاجتماع (لوحة للفنان سيروان باران)

مجالات مختلفة ذات صلة مباشرة بالواقع الاجتماعي، ودور علم الاجتماع المؤسسي في هذا السياق ينحصر في تقديم خدماته للمحافظة على مكاسب الوضع الراهن لزيادة مكاسب هذه الشركات. أما النوع الثاني علم اجتماع المستشارين (المرجعات السوسولوجية)، غالبا ما ينحصر تنظيره السوسولوجي في الإدارات أو الشركات لتقديم المساعدة في صنع القرار (سياسة المدينة، على سبيل المثال) أو إضفاء الشرعية على الخطابات السياسية الديمقراطية، المواطنة، الحرية، التعددية. لم يعد أكثر الحدائين في علم الاجتماع السائد يترددون في التعاون مباشرة مع أصحاب العمل أو التحدث في الندوات والنقاشات حول ثقافة الحكومة، والبعد الإنساني للأعمال، وأخلاقيات المسؤولية، والتنمية... إلخ. وينحصر النوع الثالث من علم الاجتماع وهو علم الاجتماع المعاكس للمؤسسات، بشكل عام خارج المؤسسات الكبيرة أو على هوامشها، مع استثناء محتمل من الجامعة، هو علم الاجتماع المنجول من حيث أنه يتجول بحرية وشاعرية في مناطق غير مزدحمة وحقول غير مميزة. مواضيعها البحثية، غالبا ما تكون غير عادية، وتتجاوز مناهجها البسيطة أن تبسط ويشكل قطع تعقيدات القضايا الاجتماعية والمواضيع والنطاق السائد ولكن لصالح من؟ كما أنهم قبل كل شيء ينقلون بعض الدعاوى والأحكام المسبقة التي لا يتم التشكيك فيها مطلقا في وضوحهم المفترض أو المطابقة القانونية المقبولة، وهو ما يستبعد في كثير من الأحيان بشكل صريح الموقف النقدي. يصنف علم الاجتماع النقدي المؤمن بالتعددية المعرفية أن هناك في الساحة الأكاديمية لعلم الاجتماع المعاصر عدة أنواع رئيسية من علم الاجتماع تتعارض مع مصالحي المعرفة والمصالح المؤسسية في كثير من الأحيان.

وغير الدائمين)، وعلماء الاجتماع غير الجامعيين (الشركات، المؤسسات الخاصة أو العامة، المستقلين). ليس لديهم جميعا نفس الأمن الوظيفي ونفس التزامات النتائج ونفس إجراءات المكافأة والتقييم ونفس موضوعات البحث وطرائقه ونفس الروح وإسماها نفس الاهتمام بالمعرفة. يمكننا بعد ذلك التمييز بين علماء الاجتماع في الحقل الأكاديمي وعلماء اجتماع المجتمع. وفي حين أن علماء الاجتماع في المجتمع يهتمون بشكل خاص بتفردات اللحظة: الأزمات والعنف والأزمات والتغيرات في العادات والظواهر الجماعية والتكنولوجية الجديدة، وما إلى ذلك، فإن علماء الاجتماع الأكاديمي، في كثير من الأحيان، يدرسون تاريخ علم الاجتماع ومنظريه وطروره الأحيال العلمي وموضوعه القانونية وحدوده التأديبية ومنهجياته وما إلى ذلك.

وقد اكتسبنا الحقل السابق تراثا أكاديميا نظريا وقواميس سوسولوجية تتصف بانها مغلقة إلى حد ما أو أكثر أو أقل سكونية، ولكن قبل كل شيء تشكل مجموعة من التخصصات وكتابات التعميم النظري والميداني للبدء بالعمل من خلال دراسة الواقع الاجتماعي. تحاول هذه التركيبات الجامعية البسيطة أن تبسط ويشكل قطع تعقيدات القضايا الاجتماعية والمواضيع والنطاق السائد ولكن لصالح من؟ كما أنهم قبل كل شيء ينقلون بعض الدعاوى والأحكام المسبقة التي لا يتم التشكيك فيها مطلقا في وضوحهم المفترض أو المطابقة القانونية المقبولة، وهو ما يستبعد في كثير من الأحيان بشكل صريح الموقف النقدي. يصنف علم الاجتماع النقدي المؤمن بالتعددية المعرفية أن هناك في الساحة الأكاديمية لعلم الاجتماع المعاصر عدة أنواع رئيسية من علم الاجتماع تتعارض مع مصالحي المعرفة والمصالح المؤسسية في كثير من الأحيان.

ويدعى علم الاجتماع المؤسسي، المكرس من قبل السلطات العامة والهيئات الأكاديمية، أنه علم الاجتماع العلمي الوحيد. في كثير من الأحيان يمؤل من قبل المؤسسات الاقتصادية الربحية التي تسعى إلى دمجها بشكل عام في المنظمات البحثية الكبيرة التي تتمتع بإمكانات لا محدودة من إصدار الجلات وإقامة المختبرات السوسولوجية التي تدار من طرف الشركات العملاقة في

بات عمل علماء الاجتماع اليوم ينحصر داخل أسوار الجامعات أو داخل المؤسسات التي تتبع للسلطة السياسية أو المالية أو الإعلامية. وبالتالي انقطع بشكل لافت عن الحياة الإنسانية في قلبها وواقعها، وتحول إلى ما يشبه الأرشفة أو تنضيد الأفكار السابقة أو العمل القاموسي، وغيرها مما يعده عن وظيفته الحقيقية في دخوله معترك الواقع ومتابعته، وهو ما يتطلب ضرورة المناادة بضرورة ترسيخ علم الاجتماع النقدي.

ما من عالم اجتماع إلا وتساءل ولو لرة واحدة حول نفع أعماله، وهم في لحظة ما، ربما، بالتدخل شخصيا في مناقشات عصره الاجتماعية واتخاذ موقف ما. وهذا يعني أنه ليس بمستطاع عالم الاجتماع في هذا المعنى أن يبقى منحجبا في برجه العاجي والإسما عن مناقشة المسائل الاجتماعية والسياسية خاصة إذا ما كانت تتعلق مباشرة بالأعمال التي أنجزها، كما يرى سيرج بوغام في كتابه "ممارسة علم الاجتماع" الصادر بترجمة منير السعيداني عن المنظمة العربية للترجمة ببيروت.

إن المدقق لواقع علم الاجتماع المعاصر يجد أن معظم علماء الاجتماع يفتنون أنفسهم في شقوق المعرفة الضيقة

إن المدقق لواقع علم الاجتماع المعاصر يجد أن معظم علماء الاجتماع يفتنون أنفسهم في شقوق المعرفة الضيقة

بعد الشرط الأول لاحتمال وجود علم اجتماع نقدي، وهو بالتالي وجود حركات اجتماعية راديكالية، وبدائل سياسية ذات مضادقية، وتدخلات احتجاجية فعالة على الأرض، كما رأينا في احتجاجات اليسار الجديد (الحركة الطلابية عام 1968، والحركات الاجتماعية عام 1995 في فرنسا المناهضة للعولمة، وآخرها احتجاجات السترات الصفراء عام 2018). فإذا كانت الماركسية الرسمية (التقليدية) منذ فترة طويلة مصدر إلهام أو مصاحبة لعلم الاجتماع، فإن تحجرها العقائدي وتشويه سمعتها المرتبط بإفلاس الستالينية والمادية والنقدية قد شككا في جميع القصص الكبيرة ذات الطابع التحرري. الآن، ومع هذه الأطروحة نرى أنها تستحق أن يتم تطويرها بالكامل من حيث طابعها النقدي وليس العقائدي والأيدولوجي.

فقد رافق علم الاجتماع دائما، بشكل مباشر أو غير مباشر، الإشتراكية أو الليبرالية، والحركات السياسية التقدمية أو المحافظة، أو الفلسفات الاجتماعية الإدارية أو الطوباوية، أو الإصلاحات أو الثورات. لذلك، سيكون من المفيد للاهتمام للغاية، في إطار علم الاجتماع، دراسة العلاقات الصريحة أو الضمنية للإنتاج السوسولوجي مع تراثها، وسياقاتها، وأوامرها، وعروضها للاستئناف، وإعانتها، والحوافز التي تتشارك في نهاية المطاف في الوضع السياسي.

لذا فإن الشرط الأول لإمكانية علم الاجتماع النقدي هو ببساطة شديدة إمكانية وجود سياسة نقدية لأنه، سواء أحببنا ذلك أم لا، "يتخذ جميع علماء الاجتماع خيارات أخلاقية وسياسية، أو يشيرون إليها ضمنا" حسب رايت ميلز (1916-1962) C. Wright Mills حتى في احتجاجاتهم غير السياسية. (لمزيد من الاطلاع انظر: سبي. رايت ميلز: الخيال السوسولوجي، ترجمة صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية العامة (بغداد).

أما الآن إذا أردنا في مجال علم الاجتماع رسم نوع من الخرائط للمواقف السياسية العالمية لعلماء الاجتماع المختلفين، وفقا لخصائصهم وأجبالهم والانتصارات المؤسسية وتقاليدهم أو مرجعياتهم المعرفية، يمكن للمرء أن يثبت بلا شك بعض الأنواع المثيرة للاهتمام. يمكننا أولا التمييز بين علماء الاجتماع الجامعيين (الموظفين المدنيين الدائمين

بات عمل علماء الاجتماع اليوم ينحصر داخل أسوار الجامعات أو داخل المؤسسات التي تتبع للسلطة السياسية أو المالية أو الإعلامية. وبالتالي انقطع بشكل لافت عن الحياة الإنسانية في قلبها وواقعها، وتحول إلى ما يشبه الأرشفة أو تنضيد الأفكار السابقة أو العمل القاموسي، وغيرها مما يعده عن وظيفته الحقيقية في دخوله معترك الواقع ومتابعته، وهو ما يتطلب ضرورة المناادة بضرورة ترسيخ علم الاجتماع النقدي.

سياسية ومؤسسية بشكل أساسي. منها ما يتعلق بالأزمة العميقة للمنظورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في المجتمعات المعاصرة ذات الرؤية المحافظة المتخالفة مع كل أشكال السلطة، أي أنهم إصلاحيون بلا إصلاحات. وبالتالي فإن حالة الانسداد الأيدولوجي، والتوافق الواقعي، والفكر المنفرد هي التي تشكل السياق الاجتماعي لجميع النصوص الاجتماعية.

ويواجه جميع علماء الاجتماع اليوم، بغض النظر عن النماذج النظرية ومواقفهم السياسية، هذا الوضع. البعض يعتقد عليه بسهولة، والبعض الآخر يستنكره، لكن الكل يضطر إلى الاندماج في تحليلاتهم في إطار هذه السلعة (أحادية البعد).

ويفسر هيربرت ماركيز (1898 - 1979) هذا الوضع من خلال ممارسات المجتمع الصناعي المتقدم الذي استطاع ويكل براعة أن يفرغ المجتمع من كل أشكال النقد، بهدف السيطرة عليه وتطويعه في خدمة تحقيق أهدافه وغاياته المتمثلة بالسيطرة والتسلط على الإنسان والطبيعة. فوسائل الاتصال الجماهيري المحصنة بالتكنولوجيا التي يمتلكها هذا المجتمع على سبيل المثال لا تجد أي عناء يذكر في تحويل المصالح الخاصة إلى مصالح تهتم كل أفراد المجتمع من ذوي الحس السليم، حيث يبدو كل شيء عقلانيا ولا يشوبه أي تناقض أو خلل. بذلك قدم المجتمع الصناعي المتقدم لأفراده مبررات منطقية للقضاء على أشكال النقد، من خلال التقدم التقني الذي يرسخ دعائم كاملة من السيطرة والتنسيق (حسام الدين فياض: تطور الاتجاهات النقدية في علم الاجتماع المعاصر، دار كريتار، إسطنبول).

بذلك تشكل هذه "المعتقدات الإيجابية" الإطارات الفريد والشامل لم يكن تجربة استبدادية. إنها بالفعل تجربة لنظام عالمي أثنائي وفريد من المفترض أن يكون غير قابل للتغيير ليفرض في نهاية المطاف معايير وقيمه وأطره الواضحة. في هذا السياق نرى أن تجربة ماركس واضحة من خلال الأيدولوجيا الألمانية، التي كانت تعتبر الأيقونة الروحية للواقع الألماني، حيث يمكن للمرء أن يفكر بشكل أعم أن كل التكوين النظري يقوم على التكوين الاجتماعي وأن تطورات علم الاجتماع لا يمكن فهمها إلا من خلال فهم تطورات وأحداث السياق الاجتماعي وتفاعلاته العالمية. هذا الافتراض، الذي يبدو منطقيا، يعني أن هناك عواقب معرفية مرتبة ذات سمة حاسمة.

إن المدقق لواقع علم الاجتماع المعاصر يجد أن معظم علماء الاجتماع يفتنون أنفسهم في شقوق المعرفة الضيقة

إن المدقق لواقع علم الاجتماع المعاصر يجد أن معظم علماء الاجتماع يفتنون أنفسهم في شقوق المعرفة الضيقة

إن المدقق لواقع علم الاجتماع المعاصر يجد أن معظم علماء الاجتماع يفتنون أنفسهم في شقوق المعرفة الضيقة

إن المدقق لواقع علم الاجتماع المعاصر يجد أن معظم علماء الاجتماع يفتنون أنفسهم في شقوق المعرفة الضيقة

إن المدقق لواقع علم الاجتماع المعاصر يجد أن معظم علماء الاجتماع يفتنون أنفسهم في شقوق المعرفة الضيقة

حسام الدين محمود فياض  
باحث وأكاديمي سوري

يطرح علينا عنوان هذا المقال مناقشة التساؤل التالي: كيف نمارس حرفة علم الاجتماع بعد مضي أكثر من قرن يفصلنا عن المحاولات الأولى لتحديد المسار العلمي والاجتماعي لعلم الاجتماع؟ فلا تزال لغاية اليوم تطرح قضية النزاهة عالم الاجتماع المثيرة للجدل تساؤلات عديدة حول ممارسته لعلم الاجتماع وغاياته. فعلى سبيل المثال يقف معظم علماء الاجتماع على تخوم السياسين، وعلى مقربة أشد مما يظنون من أصحاب القرار. إلا ينذر ذلك بوقوع عالم الاجتماع ذاته في الشرك فيجبر على اتخاذ موقف ما؛ وبالتالي تسييس نتائج بحثه وتوصياته حول دراسة الواقع الاجتماعي.

### علم الاجتماع النقدي

ما من عالم اجتماع إلا وتساءل ولو لرة واحدة حول نفع أعماله، وهم في لحظة ما، ربما، بالتدخل شخصيا في مناقشات عصره الاجتماعية واتخاذ موقف ما. وهذا يعني أنه ليس بمستطاع عالم الاجتماع في هذا المعنى أن يبقى منحجبا في برجه العاجي والإسما عن مناقشة المسائل الاجتماعية والسياسية خاصة إذا ما كانت تتعلق مباشرة بالأعمال التي أنجزها، كما يرى سيرج بوغام في كتابه "ممارسة علم الاجتماع" الصادر بترجمة منير السعيداني عن المنظمة العربية للترجمة ببيروت.

إن المدقق لواقع علم الاجتماع المعاصر يجد أن معظم علماء الاجتماع يفتنون أنفسهم في شقوق المعرفة الضيقة

إن المدقق لواقع علم الاجتماع المعاصر يجد أن معظم علماء الاجتماع يفتنون أنفسهم في شقوق المعرفة الضيقة

إن المدقق لواقع علم الاجتماع المعاصر يجد أن معظم علماء الاجتماع يفتنون أنفسهم في شقوق المعرفة الضيقة

إن المدقق لواقع علم الاجتماع المعاصر يجد أن معظم علماء الاجتماع يفتنون أنفسهم في شقوق المعرفة الضيقة

ص 10 وص 11 نشرنا كاملتين على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية

المجتمعات ضد القبولية والتسلط